

(آياصوفيا) عبر التاريخ البيزنطي والعثماني والجمهوري: دراسة تاريخية تحليلية

د. شيماء محمد الناصر عبد الحميد (*)

المستخلص:

آياصوفيا مبنى تاريخي وصرح فني ومعماري فريد، قيل إنه غير تاريخ العمارة كلها بصفة عامة، تقع آياصوفيا في منطقة سلطان أحمد على الضفة الأوروبية في استانبول، أنشئت للمرة الأولى عام ٣٦٠م في العصر البيزنطي لتكون كاتدرائية للبطريركية الأرثوذكسية، ثم تحولت إلى كاتدرائية رومانية كاثوليكية، وظلت آياصوفيا أكبر كاتدرائية نصرانية في العالم قرابة ألف عام، وبعد الفتح الإسلامي للقسطنطينية عام ١٤٥٣م تحولت إلى مسجد، أما بعد قيام الجمهورية التركية قبل أكثر من ثمانين عامًا تحولت إلى متحف علماني عام ١٩٣٤م، وأخيرًا أُعلن عن إعادة مسجدًا مرة أخرى اعتبارًا من ٢٤ يوليو عام ٢٠٢٠م، بعد إصدار حكم المحكمة الإدارية العليا بتركيا بهذا الشأن، ويمكن القول أن تاريخ آياصوفيا يبدأ مع تاريخ القسطنطينية والإمبراطورية البيزنطية التي استمرت أكثر من ألف عام والتي تعد الإمبراطورية الأطول عمرًا في التاريخ البشري، ويهدف هذا البحث إلى التعريف بتاريخ هذا البناء الشاهد على حضارة وانتصارات عظيمة، وسقوط إمبراطوريات عظمى، وإبراز دور آيا صوفيا -التي تعد نموذجًا للعلاقة بين الدين والسلطة من العهد البيزنطي حتى الدولة التركية الحديثة- في الهوية البيزنطية، ثم العثمانية، ثم التركية الحديثة، واتباع البحث المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، حيث تناول

(*) مدرس بقسم اللغة التركية وآدابها، كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر.

تاريخ آياصوفيا قبل الفتح الإسلامي للقسطنطينية، وبعده، دراسة تاريخية منذ التأسيس حتى القرار الجمهوري بشأن تحويلها إلى مسجد مرة أخرى عام ٢٠٢٠م، بالإضافة إلى وصفًا معماريًا وزخرفيًا لها.

الكلمات المفتاحية: آياصوفيا، القسطنطينية، بيزنطة، تركيا، الإسلام، الإمبراطورية، الكنيسة،

المسجد

(Hagia Sophia) through Byzantine, Ottoman and Republican history: a historical study

Abstract:

Hagia Sophia is a historic building and a unique artistic and architectural monument. It is said to have changed the history of architecture in general. Located in the Sultanahmet district on the European side of Istanbul, Hagia Sophia was first built in 360 AD during the Byzantine era as a cathedral for the Orthodox Patriarchate. It was later transformed into a Roman Catholic cathedral, Hagia Sophia remained the largest Christian cathedral in the world for nearly a thousand years. After the Islamic conquest of Constantinople in 1453 AD, it was converted into a mosque. After the establishment of the Turkish Republic more than eighty years ago, it was converted into a secular museum in 1934 AD. Finally, it was announced that it would be restored as a mosque again, effective July 24, 2020 AD, after the issuance of a ruling by the Turkish Supreme Administrative Court in this regard. It can be said that the history of Hagia Sophia begins with the history of Constantinople and the Byzantine Empire, which lasted for more than a thousand years and is considered the longest-lived empire in human history. This research aims to introduce the history of this great building, a witness to great civilization and victories, and the fall of great empires. Hagia Sophia is considered a model of the relationship between religion and authority from the Byzantine era to the modern Turkish state. The research followed a descriptive historical approach, covering the history of Hagia Sophia before and after the Islamic conquest of Constantinople. It provides a historical study from its founding until the presidential decree to convert it back into a mosque in 2020 AD, in addition to an architectural and decorative description of this building.

Keywords: Hagia Sophia, Constantinople, Byzantium, Turkey, Islam, Empire, Church, Mosque

المقدمة:

يعد المعلم الديني أحد أهم العناصر المكونة للمدن الدينية ومنها المدن العربية والإسلامية والتي تشكل أحد مكونات التراث المعماري، إذ تبرز أهمية المعلم الديني من خلال الانتماء الديني والروحاني لشاغلي المدن، كما يعد من العناصر العمرانية المميزة للهوية العمرانية، والتي رسمت الصورة الذهنية لبنية المدن الدينية في ذاكرة الناس كافة.

آياصوفيا هي ذلك البناء العظيم الذي كان ولا يزال يتمتع بدور بالغ الأهمية في التاريخ الإسلامي والنصراني على حد سواء، وإذا كانت آياصوفيا تتمتع بدور مهم ومؤثر قبل الفتح الإسلامي للقسطنطينية، فإنها تتمتع كذلك بدور أكثر أهمية وفاعلية بعد الفتح الإسلامي لها، وحتى بعد قيام الجمهورية التركية.

يهدف البحث إلى التعريف بتاريخ هذا البناء الشاهد على حضارة وانتصارات عظيمة، وسقوط إمبراطوريات كبيرة، هذا البناء الذي يعد نموذجًا للعلاقة بين الدين والسلطة والسياسة منذ العهد البيزنطي حتى الدولة التركية الحديثة، فلا ريب أن هذا الموضوع يعد من الموضوعات المهمة التي تثير حوله دائماً الجدل والدهشة لما له من أهمية وقيمة تاريخية ودينية وعمرانية وأثرية كبيرة، ويبرز هذا البحث الدور الكبير الذي تضطلع به آياصوفيا في الهوية البيزنطية، ومن بعدها الهوية العثمانية، ثم التركية الحديثة.

واتبع البحث المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، حيث تناول تاريخ آياصوفيا قبل الفتح الإسلامي للقسطنطينية، وبعده، دراسة تاريخية منذ التأسيس حتى القرار الجمهوري بتحويلها إلى مسجد مرة أخرى عام ٢٠٢٠م، ووصفًا معماريًا وزخرفيًا لها، هذا البناء الذي يعد جوهره العمارة البيزنطية على الإطلاق، فكانت أهم مبنى في العالم النصراني الشرقي برمته، وأصبحت الآن من أهم مباني العالم الإسلامي.

قسم البحث إلى أربعة أقسام، بدأ البحث بتعريف آياصوفيا تاريخيًا ووصفها للعالم الذي لا يزال مجهل كثيرًا عنها وعن شأنها الرفيع، وتدرج البحث بعد ذلك إلى وصفها من الداخل والخارج وهي كنيسة، ودورها الجليل الذي اضطلعت به مع الدولة البيزنطية لفترة طويلة من

الزمن، والقسم الثاني يشرح كيف تغيرت آياصوفيا بعد الفتح الإسلامي للمين للقسطنطينية رسمًا وجسمًا، وكيف حولها السلطان الفاتح إلى جامع كبير تقام فيه الصلوات المفروضة ويؤذن فيه للصلاة، وبعد ذلك يأتي القسم الثالث ونذكر فيه دور أتاتورك الذي كان دورًا سياسيًا دبلوماسيًا على الحياد، فلم يبقها مسجدًا كما هي، ولم يحولها إلى كنيسة مرة أخرى كما كانت في السابق، بل جعلها مزارًا دينيًا وسياحيًا حتى يتمتع الزائرون من جميع أنحاء العالم ومن جميع الجنسيات وجميع الأديان بمشاهدة ذلك البناء الضخم الذي يفوح منه عبق التاريخ، وفي النهاية يأتي القسم الرابع ويتناول كيف أعاد الرئيس التركي الحالي آياصوفيا إلى مسجد مرة أخرى متصلاً من الاتفاقيات الدولية مع اليونسكو باعتبار آياصوفيا جزءاً من التراث الإنساني.

القسم الأول:- آياصوفيا قبل الفتح الإسلامي للقسطنطينية

*الإرهاصات الأولى لإنشاء آياصوفيا:

لا شك أنه من الصعب الإحاطة بهذا الزمن الماضي وتفرعاته، هذا الزمن الذي احتضن فترة زمنية قدرها حوالي ألفي عام، فالروايات مختلفة والمصادر آرائها متفاوتة، وبناءً عليه فإنه يمكن الوصول من خلال هذا البحث إلى أقرب الفرضيات الصحيحة للروايات المختلفة والمصادر متباينة الآراء.

طبقاً للمصادر العربية والتركية فإن كنيسة آياصوفيا وهي الكنيسة الكاثوليكية القديمة التي تسمى باليونانية القديمة (هاجيا صوفيا) أو (سانت صوفيا) ومعناها الحكمة المقدسة، وهي بلا شك من المباني الفخمة على مر العصور.^(١)

تقوم آياصوفيا على بقعة كانت تشغلها كنيسة: الأولى شيدها إمبراطور روما الأكبر قسطنطين الثاني عام ٣٦٠م، وعُرفت باسم الكنيسة الكبيرة بسبب أبعادها الكبيرة مقارنة بالكنائس المعاصرة لها في المدينة، واحترقت عام ٤٠٤م اثر اندلاع حريق هائل بها،^(٢) والثانية شيدها ثيودوسيوس الثاني عام ٤١٥م ودمرتها النيران أيضاً مرة أخرى عام ٥٣٢م، وقرر الإمبراطور جستنيانوس بناء المبنى الحالي للمرة الثالثة (٥٣٢-٥٣٧م) وفقاً لتصميمات مهندسين من أهم مهندسي بيزنطة، ولنتناول ذلك بشئ من التفصيل:

لم يكد الإمبراطور قسطنطين ينقل عاصمة العرش إلى القسطنطينية، حتى بدأ يعم المدينة ازدهار عمراني، ومع هذا النشاط العمراني الواسع، ظهرت إنشاءات جديدة، وكان هذا أمراً بديهياً، فكان يجب أن تكون العاصمة جديدة بالإمبراطور، وكانت الجهود كلها مبدولة في هذا السبيل، وكانت آياصوفيا الأولى في مقدمة نتاج وحصيلة هذا الفكر.^(٣)

صارت القسطنطينية -التي تبوأ مكانة عظيمة وكان لها أهمية كبيرة في تاريخها السياسي والعسكري والاقتصادي وذلك بوقوعها عند التقاء قارتي أوروبا وآسيا- مركزاً لإمبراطورية روما، وبدأ إنشاء آياصوفيا الأولى، ففي عام ٣١٣م اعترف الإمبراطور قسطنطين في مرسوم ميلان بالنصرانية كديانة مصرح بها، وفي عام ٣٢٤م، بدأ في إنشاء عاصمته الجديدة على ضفاف البسفور، والتي وصفت بسيدة الشرق، وظلت تحمل اسم منشئها لأحد عشر قرناً من الزمان، واتجاه الإمبراطور إلى الشرق له دوافعه، فروما تمثل حضارة وتراث الوثنية القديمة برمتها.^(٤)

وعندما هدمت الكنيسة -لسبب غير معروف لدينا بشكل قاطع- كان يجب أن ينشأ قسطنطين الثاني آياصوفيا مرة أخرى لفكرة إحياء ذكرى والده، وتُفتح الكنيسة التي أنشأها قسطنطين الثاني للعبادة رسمياً بمراسم مجهزة في عام ٣٦٠م،^(٥) وتذكر العديد من المصادر أن الكنيسة كانت تسمى صوفيا فقط، كما كانت تسمى منذ القرن الخامس الميلادي آياصوفيا،^(٦) وبُنيت آنذاك على هيئة بازيليكاً ودشنت.^(٧)

وتعرضت هذه الكنيسة العظيمة لتغيرات كثيرة شتى، فهذه الكنيسة التي بناها قسطنطين الثاني تعرضت لنكبات شتى ومصائب عظيمة، فقد نُكبت بحرائق وزلازل خربت، وكان الحريق هو أكبر الفواجع لها في تلك العصور التي كان فيها الخشب يمثل عنصراً بارزاً في الآثار المعمارية إبان تلك الحقبة من الزمان، فأُتت النيران على أول بازيليكاً مسقوفة بالخشب في العشرين من يونيو عام ٤٠٤م، وقبل مرور نصف قرن على افتتاحها، حوّل أحد الحرائق معبد قسطنطين الثاني إلى رماد، علاوة على أنها شهدت إصلاحات عدة مرات على مدار نصف هذا القرن.^(٨)

وأُعيد بناء هذا المعبد الذي محاه الحريق من صفحة التاريخ عام ٤٠٤م، مرة أخرى في عام ٤١٥م وبالتحديد في الثامن من شهر أكتوبر عام ٤١٥م، وظلت الكنيسة منذ ذلك التاريخ سليمة من الدمار نيفاً وقرناً من الزمان، وحقيقة الأمر إنها خلال تلك الفترة شهدت مجموعة من الإصلاحات، لكنها لم تكن تعديلات ذات تأثير على المعالم الأساسية للكنيسة.^(٩)

وجدير بالذكر أن تاريخ روما كان صراعاً دمويّاً، وفي هذا الصراع تُرتكب كل الجرائم وأحداث العنف المختلفة، ولم تُحاصر أي دولة أو إمبراطورية بهذا القدر من الاحتلال الدموي، فالجرب الداخلية التي خربت القسطنطينية ودمرتها في عام ٥٣٢م، واحتلال نيكاً^(١٠) بالاسم الذي عرفه بها التاريخ، لم تبقى على آياصوفيا، حتى إذا كانت ليلة اليوم الثالث عشر من يناير لعام ٥٢٣م عندما اندلعت فيها النيران مرة أخرى (وكذلك كان مصير الجزء الأكبر من المدينة بما فيها المحفوظات الإمبراطورية)، تحول هذا المعبد الشهير إلى كومة من الرماد من جديد.^(١١)

وعندما وقع احتلال نيكاً، كان جستنيانوس (٥٢٧-٥٦٥م) على عرش الإمبراطورية، وإذا كان الإمبراطور الذي هدد الاحتلال حياته وعرشه وقع في موقف متأزم بدرجة أن خلاصه كان في الهروب، لكن الحظ ضحك في وجهه، وكان هذا الحظ الذي أضحك وجه جستنيانوس هو قتل الآلاف، و آت ميداني^(١٢) أو ميدان السلطان أحمد باسمه الحالي كان شاهداً على حالات الصراع المخيف والقتل العام، وبدأ الإمبراطور الذي خرج منتصراً من الحرب الداخلية في نشاط التعمير والإنشاء، وبالفعل حول جستنيانوس هذا الصراع إلى نشاط معماري فني على أقصى درجة، ولا يجب أي نصراني أن يُذكر جستنيانوس -الذي تدين له آياصوفيا الحالية بوجودها- لأنه إمبراطور دموي.^(١٣)

*آياصوفيا التي تعيش باسمها ورسمها:

إن تاج النصر الذي قدمه احتلال نيكاً للإمبراطور جستنيانوس على هامش حربه الدموية، جعل الإمبراطور المغرور يقارن بين تشييده لآياصوفيا وبين المعبد الذي أنشأه سيدنا سليمان قبل سيدنا عيسى عليهما السلام بتسعة قرون، والذي يحمل اسم سيدنا سليمان، والذي يعد هو أكبر معبد لأديان التوحيد حتى اليوم على الإطلاق، وبدأ الإمبراطور الذي استهوته هذه

الفكرة المغرورة في النشاط والتعمير مع سكرة النصر التي كانت دائماً تداعبه، وبالتأكيد مجرد فكرة المقارنة بمعبد سيدنا سليمان والإفصاح عنها تعد جرأة متناهية وحماقة كبيرة في الوقت نفسه، لكن صاحب هذه الفكرة الحمقاء أصدر قراره بإعادة بناء الكنيسة بحيث لا يضارعها في الفخامة أي بناء آخر في العالم بأسره، وأمر آنفاً بأن تُحمل على قاعدة إمبراطوريته كل المواد النفيسة من الآثار القديمة القائمة في ولاياته من تحف فنية ومعادن وغيرها، وأُستخدمت هذه المواد على نطاق واسع بعد الحريق لإعادة بناء وإعمار آياصوفيا، وعهد جستنيانوس بهذا العمل إلى مهندسين من أعظم المهندسين على مدار العصور هما انثيميوس التراسي^(١٤) و إيسيدور الميليتي^(١٥) ليضعا رسوم البناء ويشرفا على تشييده، واشترك الإمبراطور جستنيانوس نفسه اشتراكاً عملياً في تخطيط البناء وإقامته^(١٦)، إذ أمر الإمبراطور بأن البناء الجديد يجب أن يكون آمناً ضد الحرائق والزلازل، واستقر رأيهما على أن تكون خطة البناء قائمة على القباب والقيبات الصغيرة، بحيث تكون مركزه قبة واسعة لا تتركز على جدران بل على أكتاف ضخمة، وتسندهما نصفاً قبتين من كلا الجانبين، واستهدفا مكان البناء على ساحة مربعة الشكل، ساحة من أجمل ساحات العاصمة البيزنطية، واستمرت مدة البناء من عام ٥٣٢م إلى عام ٥٣٧م، أي خمس سنوات كاملة متتالية دون الانتهاء من الزخارف^(١٧). وفي أثناء هذا التشييد كان يعمل ألف عامل في اليوم الواحد، وكان الإمبراطور يظهر في مكان البناء بصفة مستمرة، والصهاريج الواسعة تحت الأرض التي غرست بداخلها أقدام أفيال كبيرة أعطت المرونة والموازنة لهذا المبنى الضخم العملاق ضد الزلازل، وظهرت القبة مشكّلة من أطباق من المصيص الرقيق جداً التي كانت بحجم لم يُر مثله قط حتى ذلك الوقت^(١٨).

وفي اليوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر عام ٥٣٧م أقبل الإمبراطور يتقدم موكباً مهيباً لافتتاح الكنيسة المتألّنة الفخمة العظيمة، وأنداك رفع جستنيانوس يده إلى السماء وصاح قائلاً: "يا سليمان، لقد تفوقت عليك..."^(١٩) ولكن هل كان الإمبراطور جستنيانوس حقاً منتصراً؟ ربما، لكن جستنيانوس نسي شيئاً وهو يفخر بهذا الانتصار، وهو أن معبد سيدنا سليمان ظهر بإمكانيات أربعة عشر قرناً سابقة.

وعبرت التاريخ تلك الفكرة التي انعكست من الاتفاقات المشتركة لهذين الداهيتين اللذين تمسكا بتوجيهات جستنيانوس على هيئة آياصوفيا التي تعد نموذجًا للتاريخ المعماري البيزنطي، وشيدت آياصوفيا بكل إمكانيات عصرها، وطُوِّعت الأعمدة المزينة والأحجار الكريمة والمعادن الثمينة الخاصة بمختلف معابد العالم النصراني للاستخدام في بناء آياصوفيا، لدرجة أنه أستخدم في هذا المعبد بعض الأعمدة الخاصة بمعبد افس ارتميس Efes Artemis Tapınağı^(٢٠) وكانت أعمدة المعبد المعروف بأنه العجينة السابعة للعالم القديم، ركائز لاستكمال المعمار في آياصوفيا.^(٢١)

وفي الأصل كانت آياصوفيا أثرًا معماريًا من الآجر^(٢٢) لا مثيل له، وبقدر ما كان هذا المعبد معماره آجريًا، إلا أن الأوجه الخارجية للجدران كُست بالرخام الملون، هذا الرخام الأخضر، والأصفر، والأبيض، والأحمر، والأرجواني، والذهبي، الذي جلب من جميع أنحاء العالم خصيصًا لأجل آياصوفيا، فكانت أرض آياصوفيا وجدانها كلها من هذا المرمر متعدد الألوان، وما كان يجذب الانتباه لهذا المعبد حقيقة هو جسمه الضخم وجماله الداخلي الذي يحير الإنسان ويدهشه عندما ينظر إليه من الخارج أو من الداخل، كان ضخماً بلا شك، بُني بوصفه كنيسة، لكنه لا يشبه الكنيسة، بدأ قصرًا للملك، ثم استكمل بناؤه -هذا على الأرجح- وفي الطرف الجنوبي للصحن الذي تُشيد فيه الكنيسة، كان يوجد ميدان واسع تُقام فيه المراسم والاحتفالات والطقوس الرسمية الخاصة بالإمبراطور يُسمى آوجوستيوم^(٢٣)، وهو باختصار ميدان للقصر تجتمع فيه السلطة الدينية والسياسية، يوجد به تمثال للإمبراطور جستنيانوس على هيئة فارس، وفي الشمال توجد الكنائس والأديرة الشهيرة واستراحات خاصة بالإمبراطورية حول القصر كلما اتجهنا إلى الداخل قليلاً بالقرب من جدران قصر طوب قايي الحالي، وشرقًا في اتجاه البحر يوجد قصر الإمبراطور، وكان يربط بين الكنيسة وبين القصر الإمبراطوري رواق خشبي يرتاده الإمبراطور وحاشيته عند الذهاب إليها للصلاة أو للاحتفالات، وكان الإمبراطور يدخل الكنيسة من الباب الإمبراطوري، وكان يستخدم هذا الباب الإمبراطور وعائلته فقط بالإضافة إلى حارسه الشخصي، وهو أكبر أبواب آياصوفيا، إذ يبلغ طوله حوالي سبعة أمتار -

وقيل إنه مصنوع من خشب سفينة سيدنا نوح عليه السلام- أما القبة فصممت بحيث تكون شديدة التفلطح، وكانت ذروة القبة تعلو عن الأرض حوالي ١٨٣ قدماً فوق مستوى الأرض ووضعت على دعائم وركائز ضخمة، فهي لا تقوم على بناء دائري بل على أربطة من أعلاها، وعلى عقود بين حافتها المستديرة وقاعدتها المربعة،^(٢٤) وتستند القبة من الشرق والغرب على أنصاف قباب ضخمة، وترسو بدورها على عقود ودعامات سفلية تخفف الضغط على الجدران، والقبة من الخارج مغطاة بطبقة من الرصاص لحمايتها من العوامل الجوية، وتفتح في أسفلها أربعين نافذة للإضاءة والتهوية.^(٢٥)

واستخدم في العمل فيها عشرة آلاف عامل، وأنفق عليها ٣٢٠,٠٠٠ رطل من الذهب، وهو كل ما كان في خزانة الدولة آنذاك، وجيء بعشرات الألوان والأنواع من الرخام من مختلف الأقطار، وصبت في النقوش والزينات مقادير هائلة من الذهب والفضة والعاج والأحجار الكريمة.^(٢٦)

أما غربها فكان عبارة عن فناء رئيسي تكتنفه دهاليز مكشوفة، ومن هنا تؤدي عدة أبواب ربما أربعة أبواب أو خمسة إلى بهو خارجي مقفل لا يزال يتبع الفناء، ومنه تؤدي خمسة أبواب إلى بهو داخلي، كما يوجد بابان آخران في كل من الطرفين الشمالي والجنوبي، وتتشعب ممرات أخرى وتؤدي حوالي تسع فتحات مستطيلة من المداخل إلى قلب الكنيسة، والفتحة الوسطى منها زُخرفت في تآلق وإبداع واستخدمت باباً للملك، أما أرض الكنيسة فصورت على هيئة الصليب تعلوها قبة معلقة على شكل نصف كرة تقريباً ترتفع حوالي ٥٦ متراً، ولما كانت الجدران الخارجية لا تستطيع وحدها حمل القبة، لم يكن هناك بد من تقويتها بأربعة أعمدة، ودُعمت هذه الأعمدة بعقود صغيرة، وعلى الجانبين الشرقي والغربي من القبة غرفتان واسعتان كل منهما نصف دائرة، ويتوج كلاً منهما بثلاثة من أشباه القباب، وكان من أهم الأمور في تشكيل داخل الكنيسة خطة الطابقين اللذين تتكون منهما جميع الغرف الجانبية المجاورة للحصن الأكبر، أما الطابق العلوي فكان يخصص للنساء كعادة بناء الكنائس البيزنطية، ويبلغ

عدد الأعمدة التي تحمل ثقل البناء حوالي مائة وسبعة عموداً سفلياً، وستة وسبعين عموداً علوياً، وأغلبها تكون قطعة واحدة من المرمر الملون، وبعضها من الحجر السماقي الأحمر.^(٢٧) وكان الزائر لهذه الكنيسة في العصور الوسطى ينبهر أشد الانبهار بروعة تلك الزخرفة الرائعة، وخاصة بألوان وكم المرمر بالغ الروعة المنتشر في جميع أرجاء البناء، بالإضافة إلى صور المسيح والسيدة العذراء والأنبياء والرسل وغيرهم من القديسين، كما غمرت الحوائط ببحر من الألوان، ناهيك عن صورة إسرافيل العظيم التي تجسدت في المثلثات الكروية للقبة الكبرى، والفُسيفساء الذهبية التي تغطي القبة والحوائط كانت تكسيها بهاءً لم تر العيون مثله من قبل قط.^(٢٨)

وكان عدد القساوسة في أيام جستنيانوس ٤٢٥ قسيساً، ومن المسلم به أنهم كانوا يخدمون أيضاً ثلاث كنائس أخرى، وعدد بوابي الكنيسة مائة بواب، وقُدِّر عدد موظفي الكنيسة قبيل اختيار الإمبراطورية البيزنطية بثمانمائة موظف، وكانت أشهر مصانع رخام في العالم تعمل لصالح آياصوفيا، فكانت مصانع يازوس في قاديّا ترسل إلى إستانبول الرخام الأحمر والأبيض، والجزائر ترسل الأحجار القديمة ذات اللون الأصفر، ومصر بدورها كانت ترسل المرمر، وستاليا ولكونيا كانتا ترسلان الرخام الأخضر القديم، وسيكادا ترسل الأحجار الوردية المخزمة،^(٢٩) وعلاوة على كل ذلك كان خيال المعمارين الواسع والقوي وإلهاماتها التي لا حدود لها، تضع هذه المواد الغنية في أجمل وأجمل صورة.

* سلسلة المصائب التي صاحبها الجراءة:

لم تصمد آياصوفيا إثر الدهاء ولا الوجود المادي، بل كان صمودها إثر الجراءة هو الغالب، لكنه لم يكن كافياً للإبقاء على آياصوفيا، فضخامة حجم قبتها والانبهار بطبقاتها كان يعرضها للمصائب، وهذا البناء الذي وقف صامداً عندما ينظر إليه من الخارج، كان لا يمكن أن يظل بهذا الصمود في مجادلتته مع الزمن، فشهد المبنى دماراً كبيراً في زلزال عام ٥٥٧م، وانهارات في القباب النصفية وتصدعات في الأربطة، وبعد إصلاحها الذي نُسب إلى المهندس الصغير إيسيدوروس الذي استمر خمسة أعوام أيضاً، أصبحت الكنيسة مهياًة لافتتاحها من جديد

بمراسم رسمية أخرى في عام ٥٦٢م، وبالتحديد في الرابع والعشرين من ديسمبر، وكانت آياصوفيا هدف الكوارث المستمرة في عهد البيزنطيين، ورويداً رويداً لم يستطع أي حريق أو زلزال أن يُصب آياصوفيا بأذى، فكان كل الضيوف المتطفلين يخربونها بلا رحمة، وفي زلزال عام ٨٦٩م شهدت الكنيسة خراباً ودماراً شديدين بحيث إنه لم يستطع أحداً الدخول إليها مرة أخرى في ذلك الوقت، وأُغلقت سنة واحدة للإصلاح السريع، ووقفت على أقدامها مرة أخرى رغم كل ذلك، وعلى أي حال فإن كل مصيبة كانت تبكيها، وتؤثر فيها، رغم التشييد المتين ورصانة المبنى، فهذه القبة العالية الواسعة، والفراغ الداخلي المهيب جعل هذا المعبد الضخم مطمئناً للكوارث.^(٣٠)

أما زلزال عام ٩٨٦م هو الآخر جعل آياصوفيا في موقف منهزم مرة أخرى، وأبكاهها على نفسها بأنين حزين، وأفرغت ليلة ٢٥ أكتوبر عام ٩٨٦م إستانبول كلها، أما حال آياصوفيا فكان يرثى له، هدم القسم الغربي برمته وانشطرت القبة، وظهرت تشققات مخيفة في جدران الكنيسة، وأُغلقت على الفور، ولم يبق في بيزنطة حتى عامل يمكنه أن يصلحها أو يصلح من شأنها ولو بالقليل—وكان هذا مثلاً مؤلماً يبين ما وصلت إليه بيزنطة من عجز—ووقع أمر إصلاح آياصوفيا هذه المرة على المهندس الأرمني نصرائي الديانة المسيحية تراتات^(٣١)، وكان التجديد الذي أضفاه تراتات لآياصوفيا، هو التقويات والتعديلات الجديدة التي دعمت شكل القبة بالذات، واستمرت الإصلاحات ستة أعوام كاملة، وأُفتتحت الكنيسة للعبادة مرة أخرى في ١٣ من مايو عام ٩٩٤م.^(٣٢)

* الاحتلال اللاتيني للقسطنطينية:

إن أكبر نزاعات العالم التي لا يصدقها عقل هي الفوارق المذهبية، فالنزاع الكاثوليكي-الأرثوذكسي يستطيع أن يدمر كل شيء بدون مبالغة، والجيش الصليبي الرابع الذي أُعدَّ للاستيلاء على القدس، احتل القسطنطينية بعد أن تقيى الدماء، وعاشت المدينة أكبر مصائبها، وذلك لأن الجيش الصليبي كان كاثوليكياً، أما سكان القسطنطينية في ذلك الوقت كانوا أرثوذكس، هذه الفاجعة التي واجهتها القسطنطينية عام ١٢٠٤م، واستمرت حتى عام

١٢٦١م، وفي أثناء الاحتلال اللاتيني الكبير، فقدت القسطنطينية أغلى ما لديها، فلم يبقَ بابها الفضي ولا زينتها المنمقة، وانعكس هذا بالتأكيد على آياصوفيا، فكانت أقفال ومزلاج كل أبواب الكنيسة من الفضة الخالصة، وكانت مائدة الاحتفالات التي طولها أربعة عشر قدماً من الذهب الخالص، ناهيك عن أنها كانت مزينة بالأحجار الكريمة، كما كان يوجد أعمدة فضية تحيط بالقبة على شكل ناقوس صُنعت من الفضة الخالصة أيضاً، وكم كان المكان حول المحراب الذي يُقرأ فيه الإنجيل عظيماً ومهيئاً، كان معلقاً بالسلاسل الفضية التي كان سمكها في ضخامة ذراع الإنسان البالغ، ومما يؤسف له أن الاحتلال اللاتيني لم يترك أثراً يُذكر لهذا الجمال، كما محيت أعداداً كبيرة من الفسيفساء، ثم سُحنت إلى مدينة البندقية، فلم يهدم آياصوفيا هذه المرة حريق أو زلزال بقدر ما دمرها الاحتلال اللاتيني، وظل البيزنطيون يعانون تحت ظلم الخارجين عن الدين لمدة ستين عاماً.^(٣٣)

وبعد الاحتلال اللاتيني، لم تستطع آياصوفيا أن تتخلص من الأحزان والدمار، تعاقبت الزلازل والحرائق على هذا المعبد العظيم مرات ومرات، وسقطت القبة العظيمة مرة أخرى، وتصدعت الأربطة الوثيقة، ولكن سرعان ما بدأت النواقيس في العزف لتمام البناء، ولهذا السبب قُوى البناء لأول مرة عام ١٣١٧م بدعائم كثيرة وكبيرة من الخارج، إلا أن هذه الأعمدة الضخمة أفسدت عظمة المعبد الوقور لكثرة عددها، لكن بالتأكيد كان ذلك أفضل من أن تُهدم مرة أخرى! وتكرر انهيار القباب على مر الزمان مرات عديدة، واستمر هذا الحال حتى مايو عام ٨٥٧هـ - ١٤٥٣م، هذا العام السعيد الذي بشر بانتهاء الحكم اللاتيني، إلا أن آياصوفيا لم تستطع استعادة عظمتها وصيتها الذي كان قبل الاستيلاء، ولم يجر أي إصلاح حقيقي لاستعادة ذلك، وبدت المدينة برمتها كالجريح الذي ينتظر الموت.^(٣٤)

* آخر مراسم الكنيسة:

ظلت مدينة القسطنطينية ألفاً ومائة عام عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية وخط دفاع ضد الشعوب غير النصرانية، وخلال هذه القرون الأحد عشر ظهرت أحد عشرة سلالة حكمت الإمبراطورية، كان بعضها حكيماً والآخر مفسداً فاسقاً، إلا أن ضعف الحكام

وفسادهم بصفة عامة، وظهور العرب المسلمين على مسرح السياسة الدولية، عجل بنهاية هذه الدولة.

وبداية من مايو عام ١٤٥٣م، مرّ الوقت على محاصرة الجيوش الإسلامية للمدينة، واعتقدت بيزنطة أنه لا أمل في القسطنطينية، ولم يذق أهل القسطنطينية الراحة طرفة عين، فأخر قلعة لهم للجوء إليها كانت عقيدتهم، وفي ليلة ٢٨ مايو عام ١٤٥٣م، أعدت المراسم الأخيرة في آياصوفيا، وبدأت هذه المراسم التي اشترك فيها كل أركان القصر يرأسها الإمبراطور قسطنطين دراجازس الإمبراطور الأخير والبالولوجي الأخير^(٣٥) بالتضرع والتوسل إلى الله للخلاص من تلك المصيبة، وانتهت بالدموع والنحيب والأدعية، وأدار الباباوات مواكب المراسم المختلفة، وطاقوا بالمدينة شارعاً شارعاً حتى الصباح، ودعا هنالك البيزنطيون بآخر آمالهم قائلين: "ربنا ارحمنا".^(٣٦)

القسم الثاني:- آياصوفيا بعد الفتح الإسلامي للقسطنطينية

*مقدمات الفتح الإسلامي للقسطنطينية:

رغم توالي المحاولات لفتح القسطنطينية فإنه لا يوجد تغيير إسلامي يذكر على آياصوفيا - قبل فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح عام ١٤٥٣م- إلا ذلك الذي طرأ عليها في عهد السلاجقة، فرغم أن السلاجقة الأتراك لم يحكموا القسطنطينية مباشرة ولم يغيروا وظيفة المبنى، فإن طراز المبنى والزخرفة في هذه المرحلة بدأ يُظهر تأثيرات العمارة الإسلامية الأناضولية التي تبلورت ولا سيما تلك التي تبلورت إبان عصر السلاجقة، وذلك قبل السيطرة العثمانية.^(٣٧)

وفي مطلع القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي خلف العثمانيون سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ووضعوا نصب أعينهم فتح القسطنطينية، وأخذوا يعملون على تحقيق هذا الهدف، وتحقق بالفعل هذا الحلم الكبير على يد السلطان العثماني محمد الثاني الشهير بمحمد الفاتح (١٤٥١م-١٤٨١م) بعد حوالي قرن ونصف من قيام الدولة العثمانية، ذلك الحلم الذي داعب خيال الفاتحين الإسلاميين قبله، وفتحت على يد ذلك السلطان الواعي الذي

أدرك مبكراً أنه لابد من إصلاح الأمور الداخلية أولاً ثم الاتجاه إلى الفتوحات، وكان أول ما قام به من أجل تحقيق فتوحاته في شرق أوروبا هو العمل على تحديد موقف الدول المجاورة من تحركاته في شرق أوروبا، ولذلك عقد هدنة مع القائد المجري ومع صربيا حتى يضمن عدم تحرك تلك الفئات ضده، ثم أتجه بعد ذلك إلى عقد معاهدة مع حاكم البندقية وأمراء الأفلاق والبوسنة، ومع فرسان الأستارية^(٣٨) في رودس، ومع حاكم ألبانيا إسكندر بك، ومع حكومة جنوه وغيرهم من الدول المجاورة أو البعيدة.^(٣٩)

* آياصوفيا أكبر مسجد في القسطنطينية:

ولما فُتحت القسطنطينية في التاسع والعشرين من مايو عام ١٤٥٣م، أُختيرت كنيسة القديسة صوفيا لتكون جامع العاصمة الرئيسي عقب هذا الفتح العظيم مباشرة، وتغير اسمها ليكون الجامع الكبير الشريف آياصوفيا، ووصفها أحد المؤرخين بأنها "قبة تسامي قباب السماء وتحاكي في تحصينها ومنعتها قبة الأهرام، ولم يصبها وهن أو ضعف وكأن أبراجها أبراج الأفلاك ومسامير أبوابها كأنها النجوم السماك"^(٤٠)، وأصبحت المدينة في أيدي الأتراك وارتفعت الأعلام العثمانية على أسوار القسطنطينية، ودخل السلطان المدينة، وأمر في اليوم الأول بعد الفتح بتحويل كنيسة آياصوفيا إلى مسجد، وأدى فيها صلاة الجمعة، وارتفعت من فوقها أصوات الله أكبر لأول مرة، هذا التصرف من شأنه إعلان السيادة الإسلامية على القسطنطينية، وقيل أن الفاتح بعد دخوله إلى المدينة ظافراً تراجلاً، وسجد على الأرض شكراً لله تعالى الذي أنعم عليه بهذا الفتح المبين، وصدق فيه حديث الرسول ﷺ: "لَتُفْتَحَنَّ القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش". صدق رسول الله ﷺ.^(٤١)

وبهذا الفتح العظيم اختفت بيزنطة إلى الأبد، وقامت على أنقاضها إمبراطورية جديدة ولكن إسلامية في الأراضي التي يمتد نفوذها من نهر العاصي إلى بحر الأدرياتيك^(٤٢). ولا شك أن العامل الديني كان له شديد التأثير في فتح القسطنطينية، تلك المدينة التي استشهد أمام أسوارها أحد صحابة الرسول ﷺ^(٤٣)، وانعكس هذا الطابع الديني على كل ركن من المدينة، ومن أهمها أن ذلك المعبد الضخم الذي أقامه قسطنطيوس ويوستينيانوس آل للإسلام، وبهذا

كان لابد أن تطرأ العديد من التغييرات على جامع آياصوفيا الجديد، حيث غُطيت في بداية الأمر الفسيفساء النصرانية التي تُظهر مريم العذراء أو المسيح أو القديسين، وأضيفت بدلاً منها عناصر إسلامية أخرى، وجدير بالذكر أن الفاتح لم يغير ما بداخلها، فاتخذها مسجداً شكلاً، إلا أنه حطم الصليبان وأقام على أنقاضها القباب والمآذن العالية، ولكن بعد الاعتراض الأوروبي أوقف الفاتح ما كان يقوم به، ولكنها مع ذلك لم تعد كنيسة مرة أخرى كما كانت، تغيرت ملامحها بالكامل، ولنتناول ذلك بشيء من التفصيل:

١- المحراب، وكان في الاتجاه الجنوبي الشرقي باتجاه القبلة، حيث أُدخلت القبلة على تصميم هذا البناء الكنسي بواسطة محراب اصطنع في وسط جناح الكنيسة الجنوبي، وكانت الكنائس البيزنطية القديمة تتجه صوب بيت المقدس، أما المسلمون فكانوا يولون وجوههم شطر مكة كما هو معروف، ولم يستطع الترك منذ الفتح الإسلامي أن يتجهوا بدقة نحو الجناح الشرقي للمسجد، بل انحرفوا قليلاً ناحية الجنوب.

٢- المنبر، وإلى يمين المحراب على عمود الكنيسة الجنوبي الشرقي الكبير، أُقيم المنبر تجاه المقصورة بمشابك خشبية مذهبة، وكان الخطيب منذ أيام السلطان الفاتح يرتقي المنبر متقلداً سيفاً خشبياً أيام الجمع وعصر كل يوم من رمضان وفي العيدين، وكان العلم يرفع دائماً على كل جانب من جانبي المنبر.

٣- أما المآذن فأضيفت تدريجياً للبناء، واحدة في عهد السلطان محمد الفاتح، وأخرى في عهد السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١م-١٥١٢م)، والباقي في عهد السلطانين سليمان القانوني (١٥٢٠م-١٥٦٦م) ومراد الثالث (١٥٧٤م-١٥٩٥م)، حيث أقام الفاتح الركائز الضخمة تدعياً للجدار الجنوبي وأقام أول مأذنة من تلك المآذن الشاحخة الرفيعة، وبنى سليم الثاني (١٥٦٦م-١٥٧٤م) الركيزتين القائمتين في الشمال والمئذنة الثانية في الركن الشمالي الشرقي، وابنه مراد الثالث هو الذي بنى المئذنتين الأخريين^(٤٤)، وبذلك أضيفت لها مآذنها الأربع الرفيعة، وقبتها طويلة وكبيرة القطر، يصل قطرها إلى حوالي ثلاثين متراً، تبرها أربعون نافذة مقوسة، الداخل مغطى بالرخام الملون والفسيفساء المذهبة.^(٤٥)

٤- غُطيت روائع الفسيفساء الذهبية التي تزين العقود وتمثل الفن البيزنطي أحسن تمثيل بطبقة من الكلس تماشيًا مع تعاليم الدين الإسلامي الحنيف الذي ينهى عن تصوير الكائنات الحية، وبذلك اختفت الفسيفساء التي كانت تزين الجدران والأقبية والتي بدت في عيون مبدعيها من الإغريق أنها ستبقى أبد الدهر، اختفت تحت طلاء من الجير في لون الرماد.^(٤٦)

٥- حطم الفاتح الحاجز ذا الأيقونات الذي كان يفصل بين القس وعامة الناس، ونزعوا الزخارف الثمينة التي كانت تزين الجناح الشرقي.

٦- أُضيفت الثريات والخطوط العربية التي تحمل اسم النبي ﷺ، وأسماء الخلفاء الراشدين، وتمثلت في نقوش ضخمة كُتب بعضها بأحرف يبلغ طولها تسعة أمتار، مرقومة بماء الذهب على لوحات مستديرة كبيرة أُقيمت على جدران الجامع وأساطينه، ولم تستحدث إلا في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠).^(٤٧)

٧- كما أسس الفاتح المنتصر وقفًا شرعيًا خاصًا بآياصوفيا لضمان استمرار صيانتها وخدمتها بوصفها مسجد، وهذا الوقف وُثق في سجل رسمي باسم وقفية الفاتح.

٨- وبهذا أصبحت آياصوفيا رمزًا مهمًا في الدولة العثمانية ومكانًا لصلاة الجمعة والخطب السلطانية والخطب المهمة، أما الصليب الذي كان يتوج القبة فوُضع مكانه هلالاً قطره خمسون ذراعاً وأنفق في تذهيبه مالا وفيرا.^(٤٨)

وأمر السلطان مراد الثالث (١٥٧٤م-١٥٩٥م) بإصلاحات شاملة في المسجد، وكان المقصود بها أولاً إصلاح العيوب اليسيرة التي ظهرت بمرور الزمن، وثانيًا المزيد من الزخرفة المبالغ فيها، كما أهدى المسجد أيضاً المصطبتين الكبيرتين اللتين كانتا مخصصتين لتلاوة القرآن الكريم.^(٤٩)

وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر تحول فناء آياصوفيا إلى أضرحة للسلطين العثمانيين، وأقدمها ضريح السلطان سليم الثاني (١٥٦٦م-١٥٧٤م)، وهناك أيضاً دفن ابنه مراد الثالث (١٥٧٤م-١٥٩٥م) وحفيده محمد الثالث (١٥٩٥م-١٦٠٣م) وإخوة محمد الثالث التسعة عشر الذين قتلهم هذا السلطان بعد اعتلائه العرش، وبعد ذلك بعقود قليلة

تُوفى السلطان المخلوع مصطفى الأول (١٦٢٢م-١٦٢٣م)، ودفن هناك، ومن بعده السلطان إبراهيم (١٦٤٠م-١٦٤٨م) ابن أخ السلطان مصطفى الأول^(٥٠).

وأمر السلطان مراد الرابع (١٦٢٣م-١٦٤٠م) -الذي شهد عهده إلى حد ما انتعاشاً عاماً على كل المستويات- بتزيين جدران المسجد الخالية من الزينة تزييناً مشهوداً على يد الخطاط بجاقجي زاده مصطفى چلبی، فكتب هذا الخطاط عليها شواهد من القرآن الكريم بحروف كبيرة من الذهب، وبلغ طول بعض هذه الحروف، مثل حرف الألف، مبلغاً كبيراً، ارتفع إلى عشرة أذرع، وتشابكت هذه الآيات جميلة التصوير فيما بينها في كثير من الأحيان^(٥١).

كما أقام أحمد الثالث (١٧٠٣م-١٧٣٠م) المقصورة الموجودة في الجانب الشمالي من الحراب الرئيسي والتي خُصصت لجلوس السلطان، وأضاف محمود الأول (١٧٣٠م-١٧٥٤م) شرفة السلطان الكبيرة المكشوفة بالطابق الأول في الرواق، كما أقام نافورة فائقة الحسن، ومدرسة^(٥٢)، وقاعة كبيرة للطعام شمالاً، وأهم من ذلك كله المكتبة النفيسة التي أقامها في المسجد نفسه^(٥٣).

ومنذ أيام مراد الرابع فاتح بغداد لوحظ إهمالاً محسوساً في صيانة المسجد اقترن بالاضمحلال العام الذي حل بالإمبراطورية العثمانية، أما المسجد، فكلف السلطان عبد المجيد (١٨٣٩م-١٨٦١م) سنة ١٨٤٧م مهندسين معماريين إيطاليين بتجديد البناء تحاشياً لانهيار بعض أجزائه المهددة بالسقوط مما أضفى على البناء رونقاً وبهاءً، واستغرق العمل سنتين، وأبقى الطلاء الجيري على الأماكن التي تصور الإنسان فحسب، أما فيما عدا ذلك فكشف عن الجدران فتجلت واستردت بهائها القديم، ويرجع الطلاء المخطط بالأحمر والأصفر على الحائط الخارجي إلى عهد السلطان عبد المجيد، فالطريقة التي عبر بها هذا السلطان عن اعتزازه لمآثر أجداده جديرة بالتسجيل، بالإضافة إلى أنه أصلح جميع المآذن فيما عدا منذنة السلطان الفاتح محمد الثاني، فإنه أمر بتعليقها حتى أصبحت في ارتفاع بقية المآذن الأخرى، أما اللوحات المستديرة الثماني التي نقشها الخطاط مصطفى عزت أفندي أقيمت في آياصوفيا في عهد السلطان عبد المجيد^(٥٤).

ومن حسن التوفيق أيضاً أن المسجد لم يصب بأذى من جراء الزلزال منذ القرن العاشر، ويجب أن نسلم بأن ذلك يرجع بصفة عامة إلى الركائز التي أقامها أواخر الأباطرة البيزنطيين ومن بعدهم السلاطين العثمانيين مدعمين الجوانب الأربعة من جدران ذلك البناء الضخم - المقام في أرض معرضة للزلازل - مما جعله يخدم الناس لفترة أطول من أي بناء آخر شيد في أوروبا، علاوة على أن العواصف التي تهب من البلقان أو من البحر كانت تعرض المسجد لخطر متزايد.

وفي صيف عام ١٩٠٦م أمر وزير المعارف أغا اوغلي أحمد باشا بإجراء إصلاحات شاملة وبالتحديد في بناء المكتبة التي كان يتناوب عليها خمسة موظفين لكل منهم يوم من أيام الأسبوع.^(٥٥)

وكان منظر المسجد بهيجاً في شهر رمضان إذ يجتمع الأمراء ورجال الدولة في صلاة العصر، أما صلاة التراويح التي تقام بعد المغرب بساعة ونصف فكان الاحتفال بها دون ذلك، وكانت القبة تضاء بمصابيح لا تحصى منتظمة في دائرة، ويظهر المسجد في أبهى حُلّة ليلة السابع والعشرين من رمضان، وهي ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن الكريم، وكثيراً ما كان السلاطين الأولون يشتركون في هذا الاحتفال، أما السلطان عبد الحميد (١٨٧٦م-١٩٠٩م) فكان يركب قارباً ليتبرك بآثار النبي ﷺ وبقلعة أسلافه القدامى في زيارة قصيرة في ليلة النصف من شهر رمضان.^(٥٦)

* وصف الروايات الإسلامية لآياصوفيا:

ليس بين أيدينا أي رواية إسلامية في وصف آياصوفيا من الداخل أيام البيزنطيين، وأول مسلم ذكر الكاتدرائية بالتفصيل هو أحمد بن رسته^(٥٧)، ولكنه يستقي وصفه من هارون بن يحيى^(٥٨) الذي كان أسيراً في القسطنطينية ردهاً من الزمن في القرن التاسع الميلادي، والحق أن هارون لم يصف البناء الذي أسماه الكنيسة العظمى، بل وصف موكب الإمبراطور البيزنطي في ذهابه إلى الكنيسة يوم عيد وصفاً تفصيلياً حياً، ومن التفصيلات التي ذكرها بشأن الكنيسة أمراً له أهمية خاصة: هو قوله إنه كان وراء مجلس الكنيسة (أي المقاعد) أربعة وعشرين باباً كل

باب منها يفتح على البوابة الغربية، وكان أحد هذه الأبواب الصغار يفتح وينغلق من تلقاء نفسه في نهاية كل يوم، ولما اضمحلت الخلافة أخذ المسلمون بعد ابن رسته يمسكون شيئاً فشيئاً عن الكلام عن القسطنطينية، وبعد ذلك بعشرات السنين جاء مُجَّد بن بطوطه، فكان أول من نسب بناء (آياصوفيا) لآصف بن برخيا^(٥٩)، وأهم ميزة لابن بطوطه وصفه المفصل لفناء الكنيسة، وهو يؤكد أنه لم يسمح له بدخول الكنيسة نفسها، وربما كان السبب في ذلك أنه أبى أن يخضع للركوع للصليب الموجود بمدخلها.^(٦٠)

* القسم الثالث:- دور أتاتورك

في عام ١٩٣٤م أمر الرئيس مصطفى كمال أتاتورك بأن يتحول مسجد آياصوفيا من بيتاً للعبادة إلى متحفٍ تشرف عليه إحدى المصالح، فحوطها إلى مزاراً دينياً يتمتع بمشاهدته الزائرون من شتى أرجاء المعمورة ومن جميع الجنسيات وجميع الأديان، علاوة على أنه جعل التذاكر مخفضة للطلبة والطالبات، وبالتالي أجريت بعض التعديلات على المبنى، منها أنه أزيل الطلاء الجيري الذي يغطي صور الأشخاص في الفسيفساء، فتجلت سنة ١٩٣٦م صورة جميلة للعدراء جالسة على العرش ومعها طفلها يحف بها الإمبراطور قسطنطين-ومعه نموذج للبلدة التي أنشأها- والإمبراطور يوستينيانوس -ومعه نموذج لكنيسة آياصوفيا- وتقوم هذه الصور فوق باب الدهليز الجنوبي، وصورة أخرى فوق الباب الرئيسي المؤدي من الدهليز إلى الكنيسة (باب الإمبراطور القديم) تمثل المسيح جالساً على العرش يركع عند قدميه متعبداً أحد أباطرة الروم القدامى.^(٦١)

وتقوم غير بعيد من آيا صوفيا العظمى آيا صوفيا الصغرى، أو كما يطلق عليها الأتراك (كوچوك آيا صوفيا Küçük Ayasofya)، بناها الإمبراطور جستينيانوس وأهديت من قبل إلى القديسين سرغيوس وباخوس، وهي تقوم على قاعدة مثمثة الشكل تمتد منها أربعة محاريب تعلوها قبة كبيرة، وحول السلطان مُجَّد الفاتح هذه الكنيسة أيضاً إلى مسجد، ومن يومها أعدت أكمل إعداد للعبادة وتدرّس العلوم الإسلامية، وتعلو الصفة خمس قباب مفلطحة بناها الترك.^(٦٢)

وظلت آياصوفيا الكبيرة والصغيرة بعد ذلك شامخة وصلبة أمام عوامل الزمن المختلفة صامدة أمام الزلازل العديدة والهزات الأرضية العنيفة في تلك المنطقة الشهيرة بكثرة زلازلها، وعلى كل من يزور استانبول أن يتمهل هنالك للحظات حتى يتأمل الصفاء والسكون السحري لهذا البناء الضخم، وسيزداد إعجابًا بالفسيفساء البيزنطية بلا شك.

وحقيقة الأمر أن الفن العثماني الذي ظهر في تشييد هذا البناء من جديد اضطلع بدور بارز في الفن الإسلامي الذي ظهر وخضع لمحاولة تغيير ذلك البناء الكنسي وتحويله إلى معلم إسلامي، وحظي بشهرة عالمية وأصالة لعدة قرون حتى الآن، وأتخذت آياصوفيا نموذجًا معماريًا لعدة مساجد تركية عظيمة شيدت باستانبول بعد ذلك.^(٦٣)

ولا شك أن آياصوفيا تحمل دلالات رمزية كبيرة في الجمهورية التركية العلمانية أكثر من كونها مجرد بناء ضخم، خاصة في إطار تشكيل هويتها، تلك الهوية التي شكلها مصطفى كمال أتاتورك، ويمكن القول أن آياصوفيا -بحالة كونها مزارًا دينيًا- كانت ترمز في الجمهورية التركية العلمانية إلى:-

- ١- كونها رمزًا محايدًا يخص البشرية جمعاء، لا جماعة دينية بعينها، وتحويلها من مجرد إرث ديني سياسي، إلى تراث إنساني عالمي هو تأكيدًا للعلمانية وإنهاء الارتباط بين الدين والدولة.
- ٢- القطيعة مع الماضي العثماني الإسلامي، فإن تحويلها من مسجد إلى متحف لم يكن مجرد إجراء إداري، بل كان إعلانًا عن توجه الجمهورية الجديدة نحو العلمانية بصفة عامة.
- ٣- فلسفة الدولة الحديثة التي تسعى للابتعاد عن الرمزية الدينية، ورسالة بأن الجمهورية التركية الجديدة لم تستمد هويتها من الفتوحات العثمانية أو من الإسلام السياسي، وإنما من العقلانية والعلمانية والقومية التركية، وبذلك أصبحت آيا صوفيا رويديًا رويديًا رمزًا لإعادة صياغة الهوية الوطنية التركية على أسس غير دينية.
- ٤- جسرًا ثقافيًا بين الحضارة البيزنطية المسيحية والتراث العلماني، وهذا بدوره يعكس رؤية أتاتورك لجعل تركيا جزءًا من الحضارة الغربية، بالإضافة إلى كونها دولة حديثة تسعى للاندماج مع أوروبا.

*القسم الرابع:- عودة المبنى إلى مسجد مرة أخرى

منذ عام ٢٠٠٥ وحتى عام ٢٠١٦م أقامت بعض الجمعيات التركية عدة دعاوى قضائية تطالب بإلغاء تحويل آياصوفيا إلى متحف، وفي العاشر من يوليو عام ٢٠٢٠م ألغى مجلس الدولة التركي قرار التحويل وأذن بإعادة استخدامها مسجداً رسمياً بعد إصدار حكم المحكمة الإدارية العليا بتركيا بذلك، وأقيمت فيه أول صلاة جمعة، وذلك بحضور أردوغان رئيس الدولة الحالي وشخصيات دينية ودولية في ٢٤ يوليو ٢٠٢٠م، وأعلن رئيس الشؤون الدينية التركي علي أرباش خلال زيارته لآياصوفيا أن الصلوات الخمس ستقام يومياً في المسجد بشكل منتظم اعتباراً من هذا التاريخ، وأثار القرار ردود فعل عالمية واسعة ومتباينة بين مؤيد ومعارض.^(٦٤) وبعد تحويل المبنى إلى مسجد مرة أخرى طرأت عليه بعض التعديلات والتجديدات من الداخل والخارج نذكر منها على سبيل المثال:

١-التعديلات الداخلية والاستعداد للصلاة:

عُلقت اللوحات والفسيفساء النصرانية التي تخص العذراء والملك جبرائيل خاصة الكبيرة منها الموجهة نحو القبلة بإحكام باستخدام ستائر وتقنيات تحجب الضوء أثناء أوقات الصلاة فقط، على أن ترفع مرة أخرى بعد انتهاء الطقوس والشعائر الدينية، كما فُرشت سجادة ضخمة داخل الصحن الرئيس لمراسم صلاة الجمعة، وأُلغيت رسوم الدخول بعد قرار التحويل، وأصبحت الزيارة مجانية للمسلمين وغير المسلمين خارج أوقات الصلاة.^(٦٥)

٢-أعمال الترميم والتعزيز:

منذ عام ٢٠٢٤م بدأت تركيا بأهم مشروعات ترميم منذ بناء آياصوفيا، وخاصة تعزيز قوة القبة المركزية ومقاومة الزلازل بإشراف عدد كبير من المهندسين وفريق كبير من الخبراء والفنيين، ويقوم هذا الفريق بتركيب رافعة برجية على الجانب الشرقي لتسهيل عمليات البناء مع الحفاظ على إمكانية دخول الزوار والمصلين أثناء العمل الإنشائي، ويواصل الفريق ترميم المآذن والهيكल الخارجي والعمل على تعزيز أجزاء القبة والأقواس الرئيسية باستخدام مواد حديثة وخفيفة للحفاظ على سلامة المبنى ضد الزلازل وعلى المظهر التاريخي للموقع.^(٦٦)

ولا يزال المؤرخون والخبراء الأتراك وغيرهم من الجنسيات الأخرى يراقبون المواقع الأثرية لاكتشاف فسيفساء بيزنطية نصرانية إضافية يمكن اكتشافها خلال أعمال التنقيب والترميم، وبالرغم من كل هذا أعربت منظمة اليونسكو عن قلقها من كل تلك التغييرات التي تمت دون إشراك المنظمة أو التشاور معها مسبقاً، ومطالبة تركيا بالحفاظ على القيمة العالمية للمبنى وللموقع خاصة بعد تنصل الزعيم التركي أردوغان من الاتفاقيات الدولية مع اليونسكو باعتبار آياصوفيا جزءاً من التراث الإنساني.^(٦٧)

وبكل هذه التعديلات يُراد الحفاظ على الطابع الديني للمكان باعتباره مشروعاً وطنياً مع مواصلة جهود الحفاظ والترميم حفاظاً على قيمته الثقافية بوصفه منشأة تاريخية عالمية عريقة، وأعاد هذا التحويل التأكيد على الهوية العثمانية الإسلامية، فهو يعد انعكاساً لصراع أعمق حول المشروع الذي سيقود تركيا في المستقبل، هل هو المشروع القومي الإسلامي، أم المشروع الغربي العلماني، وعلى صعيد آخر فإن تحويل آيا صوفيا من متحف إلى مسجد مرة أخرى لم يكن مجرد قرار ديني، بل له دلالات سياسية قوية داخل تركيا وخارجها:-

١- في الشأن التركي الداخلي:-

كان القرار وسيلة للرئيس أردوغان لتعزيز شعبيته، بين القاعدة التركية الإسلامية المحافظة على وجه الخصوص، والتي ترى في آياصوفيا رمزاً لانتصار السلطان الفاتح محمد الثاني عام ١٤٥٣م، بالإضافة إلى أن هذا القرار جاء في وقت كان فيه الاقتصاد التركي يواجه أزمات عديدة وتراجعاً كبيراً، فجاء هذا القرار بصفته رسالة سياسية تقول إن تركيا الجديدة تعيد مرة أخرى وصل حاضرها بماضيها العثماني، كما إنه في الوقت نفسه قرار يمثل تحدياً للمعارضة العلمانية التي ترى في بقاء آياصوفيا متحفاً رمزاً للجمهورية الكمالية.

٢- في السياسة الخارجية:-

كان هذا القرار بمثابة رسالة موجهة إلى العالم الإسلامي بأن تركيا تقدم نفسها للعالم من جديد بوصفها حامية التراث الإسلامي، وهذا ما يعزز مكانتها في الشرق الأوسط برمتها، واستخدم أردوغان هذا القرار بوصفه ورقة ضغط ورسالة استقلالية لتركيا عن الغرب، وفي

المقابل آثار هذا القرار الانتقادات من اليونان والاتحاد الأوروبي وروسيا والكنيسة الأرثوذكسية، لأن آياصوفيا بالنسبة هؤلاء رمز ديني نصراني وبيزنطي، وفي كل الأحوال فإن منذ افتتاحها بوصفها مسجد في عام ٢٠٢٠م، يُقدر زوارها بين ستة إلى سبعة ملايين زائرًا سنويًا تقريبًا.

الخاتمة

١- لا ريب أن آياصوفيا أثبت أن تعود إلى كنيسة مرة أخرى كما كانت في السابق، وحتى بعد أن قرر أتاتورك تحويلها إلى مزار، أثبت إلا أن تكون مسجدًا يُذكر ويُقدس فيها اسم الله الواحد الأحد.

٢- يعد هذا الصرح الكبير ذروة الإنتاج المعماري في العصور القديمة المتأخرة، وأول تحفة معمارية بيزنطية، وتعد آياصوفيا جوهر العمار البيزنطية وقمة المعمار البيزنطي الفخم، بدت فيه الحضارة البيزنطية أرقى بكثير من الحضارة العثمانية التي حلت محلها، فهو صرح فني ومعماري فريد بلا شك.

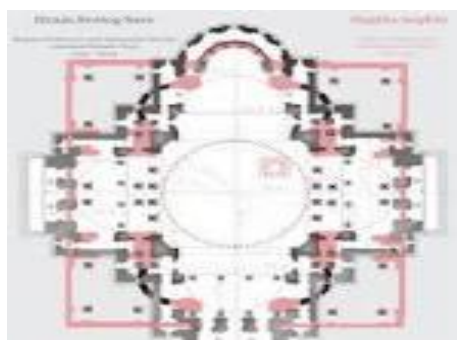
٣- أهم ما يلاحظ على الطراز البيزنطي المتمثل في آياصوفيا أن الفنانين اعتمدوا في كثير من الأحيان على المغالاة في التكوينات المعمارية والزخرفية من حيث الأحجام والألوان والزينة واستعمال المواد الغالية والإسراف في التذهيب.

٤- استخدمت الفسيفساء في الفن البيزنطي في العمارة ذات الطابع الديني لعدة أهداف، أهمها تعميق التعاليم الدينية الخاصة بالديانة النصرانية عن طريق وضع الصور المختلفة المأخوذة سواء من التوراة أو الإنجيل.

٥- آياصوفيا بناء متميز بكل معنى الكلمة، ويمكن القول إنه بناء جمع العديد من الأفكار المعمارية التي كانت موجودة في ذلك الوقت، فهي أول كنيسة في التاريخ ذات قباب.

٦- تعد آياصوفيا مثالاً بارزاً على التزاوج بين الحضارات والثقافات الإسلامية والمسيحية، ومرآة لتقلبات الشرق والغرب، كما أنها تعد مرآة التاريخ البيزنطي والعثماني والجمهوري.

- ٧- تعد التعديلات المعمارية من مآذن وكتابات وخلفيات وزخارف إسلامية مثلاً واضحاً على التأقلم الثقافي خلال الفترات المختلفة من تاريخ المبنى، فهي من أبرز الرموز المعمارية والدينية في العالم.
- ٨- التحولات التي طرأت في طابع المبنى غالباً ما ارتبطت بتحويلات سياسية ودينية وثقافية في الدولة، بدءاً من بيزنطة إلى الجمهورية التركية الحديثة، وهذه التحويلات المتعاقبة لآياصوفيا تكشف عن علاقة وثيقة بين الدين والسياسة عبر القرون.
- ٩- بعد فتح القسطنطينية وقرار تحويل آياصوفيا إلى مسجد عثماني، كان هذا القرار قراراً دينياً لإظهار سيادة الإسلام وتثبيت شرعية الفتح العثماني.
- ١٠- قرار تحويل آياصوفيا إلى محف كان قراراً سياسياً علمانياً بالدرجة الأولى ليؤكد على هوية الدولة التركية الجديدة المنفصلة عن الموروث العثماني والخلافة العثمانية، وترسيخ العلمانية.
- ١١- التحويل الثالث لآياصوفيا هو بلا شك قرار يحمل أبعاداً دينية وسياسية لإبراز الهوية الإسلامية والقومية، ويعدُّ بعداً آخر في الصراع بين التيار العلماني والتيار المحافظ في تركيا.



شكل (١) تصميم لآيا صوفيا قبل البناء شكل (٢) تصميم هندسي تجريبي لآيا صوفيا



شكل (٣) آيا صوفيا من الخارج بجانبها المدرسة والمكتبة الملحقة بها



شكل (٤) مزار آياصوفيا من الداخل بعد قرار تحويلها لمتحف يزوره السائحون من كل
حذب وصوب



شكل (٥) مسجد آياصوفيا بعد قرار أردوغان بتحويلها إلى مسجد مرة أخرى، وفُرشت بالكامل بالسجاد التركي المصنوع من الصوف الطبيعي واختار الرئيس بنفسه اللون الأخضر الزاهي ليناسب الأجواء الداخلية للمسجد، ويتميز هذا السجاد بتقنية فريدة وكأنها شعيرات موجهة نحو القبلة وذلك باستخدام تقنية الضغط بالبخار لضمان اتجاه جميع الألياف في نفس الاتجاه.

الهوامش

- (^١) الموسوعة العربية الميسرة، دار الشعب، ط ٢. ١٩٧١، ص ٦١٧
- (^٢) محمود السيد الدغيم: جريدة الحياة، العدد ١٦٢٥٦ - أكتوبر - ٢٠٠٧م، ص ١٢
- (^٣) Hüseyin yılmaz: Ayasofya, B.2, Timaş yayınları İstanbul 1991, s7-10
- (^٤) زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨١م، ص ١٧٦
- (^٥) Hüseyin yılmaz: (a,g,e), s55
- (^٦) دائرة المعارف الإسلامية: النسخة العربية، المجلد ٢، دار الشعب، ص ٢٨٨
- (^٧) البازيليكا أو الباسليقية، ومعناها القصر الملكي، وهي نوع من المباني له أصل قديم، كان يستخدم في البدايه في روما القديمة مكان للمحاكم والتجمعات العامة، ثم تبنته الكنيسة المسيحية لاحقاً بوصفه نمط معماري للكنائس الكبرى، والكلمة أصلها لاتيني Basilica، وتعني القاعة الملكية، وفي المسيحية الكاثوليكية يمنح لقب بازيليك لبعض الكنائس المهمة التي يكون لها أهمية تاريخية أو دينية خاصة.
- فرانك تشينغ: تاريخ العمارة، نيو جرسى، ٢٠١٤م، ص ٢٥١-٥٦٧
- The Oxford Dictionary of Christian Art and Architecture, Linda Murray, Peter Murray, P117.
- (^٨) Károly Kós: Istanbul (şehir Tarihi ve mimarisi) çeviren:Naciye Güngörmüş, Ankara,1995, s80
- (^٩) İslam Ansiklopedisi, Türkiye diyanet vakfı, cilt 4, Semavi Eyice (Ayasofya), s206-207
- (^{١٠}) ثورة نيكيا هي أحداث عنف وقعت سنة ٥٣٢م في عهد الإمبراطور البيزنطي جستنيانوس الأول داخل القسطنطينية.
- Treadgold, Warren: Ahistory of the Byzantine state and society, Stanford university Press,1997, s202-205
- (^{١١}) Hüseyin yılmaz: (a.g.e), s73
- (^{١٢}) هذه المنطقة معروفة اليوم باسم (منطقة سلطان أحمد Sultanahmet)
- Ayşegül Acar: Türkiye Turizm Ansiklopedisi- "Sultanahmet Meydanı". 2019, s305
- (^{١٣}) Hüseyin yılmaz, (a.g.e), s79
- (^{١٤}) أنثيموس التراسي هو مهندس إغريقي شرقي، عُهد إليه ببناء كنيسة آيا صوفيا، درس الحساب والهندسة، وتوفي في ٤٣٥م.
- دونالد م. نيكول: معجم التراجم البيزنطية، ترجمة حسن حبشي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ١٨٦، ١٠٥
- (^{١٥}) الملقب هو مهندس إغريقي شرقي أيضاً، من أهل ملطية، عُهد إليه ببناء كنيسة آيا صوفيا مع أنثيموس التراسي.
- المرجع نفسه، ص ١٨٦، ١٠٥

-نورمان: الإمبراطورية البيزنطية تاريخها وحضارتها وعلاقتها بالإسلام، تعريب حسين مؤنس محمود يوسف زايد، ط١، القاهرة، ١٩٥٠م، ص ٢٣٤

(^{١٦})حسن الباشا: موسوعة العمارة والفنون الإسلامية، ج٢، أوراق شرقية، بيروت، ١٩٩٩م، ص ٧٠

(^{١٧}) المرجع نفسه، ص ٧٧

(¹⁸) Hüseyin Yılmaz, (a.g.e), s86

(^{١٩})ول وإبريل ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، المجلد ٤، الجزء الأول، ١٩٧٥م، ص ٢٦٣

(^{٢٠})معبد افس ارتيميس هو أحد عجائب الدنيا السبعة في العالم القديم، وكان للإلهة ارتيميس وهي إلهة الصيد والخصوبة في الأساطير الإغريقية، ويقع المعبد في مدينة افس القديمة قرب بلدة سلجوق selçuk الحالية في محافظة إزمير بتركيا، ويرجع تاريخه إلى القرن السابع قبل الميلاد، تعرض للهدم أكثر من مرة بسبب الحروب والكوارث الطبيعية، ولم يبق منه اليوم إلا بقايا الأعمدة والأساسات.

-Peter A. Clayton: The Seven Wonders Of the Ancient World, 1988, s55

(²¹)Hüseyin Yılmaz: (a,g,e),s88

(^{٢٢})الآجر هو نوع من أنواع الأحجار الصلبة المتينة، تُصنع عادة من الطين المحروق، وتستخدم في بناء الجدران والأسطح، وغيرها من أجزاء المباني، ومن أهم مميزاته أنه عازل جيد للصوت والحرارة، وطويل العمر.

(^{٢٣})وهي كلمة لاتينية مشتقة من اسم الإمبراطور أغسطس، وأضيفت لها اللاحقة (eum) للدلالة على المكان.

-Pietre Gyllius: The Amtiquities Of Constantinople, translate by John Ball, London, s729.

(^{٢٤})نورمان: مرجع سابق، ص ٢٣٥

(²⁵)Hüseyin Yılmaz: (a,g,e), s89

- وليم لانجر: موسوعة لاروس، الدولة البيزنطية، للبارز العربي، ج٢، ص ١٦٧

(^{٢٦})ول وإبريل ديورانت: مرجع سابق، ص ٢٦٣

(^{٢٧})الحجر السماقي الأحمر هو نوع من الأحجار الكريمة أو الزينة، شديد الصلابة، متين للغاية، مناسباً للنحت والبناء، استخدم منذ العصور القديمة خاصة في العصر الروماني والبيزنطي، لصناعة الأعمدة والتيجان المعمارية، والتماثيل والتوابيت الإمبراطورية، والأرضيات والجدران المزخرفة في القصور والكنائس، وكان يسمى أيضاً حجر الأباطرة حيث كان يستخدم فقط من قبل الأباطرة.

-Rudlof Numann: Eski Anadolu Mimarlığı, Türk Tarih Kurumu Yayınları, Istanbul, 2019,s73

(²⁸)Hüseyin Yılmaz: (a,g,e), s90

(²⁹)A.G.E, s92

(³⁰)Hüseyin Yılmaz: (a,g,e), s95

(^{٣١})المهندس ترطات أو تردات، ويعرف أحياناً في بعض المصادر باسم "Trdat" وهو أرمني الأصل، وقيل إنه من جذور تركية، عاش في العصر البيزنطي، كان مهندس البلاط الملكي لدى الملك الأرمني ثم استدعى إلى القسطنطينية لمهمة إعادة بناء وترميم قبة آياصوفيا.

-Judith Herrin: Byzantium, The Suprising Life of a Medieval Empire, Princeton University Press, America, 2008, s165

(³²) Beynun Akyavaş: İstanbul, Tercüme eserleri Dizisi-s.55.

(³³) اسمت غنيم: الحملة الصليبية الرابعة ومسؤولية انحرافها ضد القسطنطينية، دار المعارف، ١٩٨٢م، ص ٩٣-٩٥

(³⁴) Hüseyin Yılmaz: (a,g,e), s97

(³⁵)الباليولوجي (Paleology) هو علم دراسة الأشياء القديمة جدًا، خاصة ما يتعلق بالحضارات القديمة والماضي السحيق من خلال الآثار والنقوش والمخطوطات.

(³⁶) Hüseyin Yılmaz: (a,g,e), s99

(³⁷) Ahmet Turan Köksal: Selçuklu- osmanlı Sentezini Aşmak, İstanbul, 2016, s50

(³⁸)الأسبتارية هم أحد الفرق العسكرية الصليبية التي شاركت في الحروب الصليبية، ويسموا أيضًا فرسان مستشفى القديس يوحنا الأورشليمي، نشأوا بوصفهم جماعة لرعاية الحجاج المرضى في القدس، ثم تحولوا إلى قوة عسكرية، وكان لهم دور كبير في الحروب الصليبية وامتلكوا قلاعًا ومناطق في الشام.

-TDV Islam Ansiklopedisi, Semavi Eyice: s209

(³⁹)Yılmaz Öztuna: Osmanlı Devleti Tarihi, cilt1, İstanbul, 1986, s443

(⁴⁰)مُحَمَّد بن أبي السرور البكري الصديقي: المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، ط ١، ١٩٩٥م، ص ٢٠٣

(⁴¹)سيد رضوان علي: السلطان مُحَمَّد الفاتح، الطبعة ١، ١٩٨٢م، ص ١٨٧

(⁴²)بحر الادرياتيك وهو فرع من البحر المتوسط يقع بين دول البلقان شرقًا، وإيطاليا غربًا، وهو بالتركية Adriyatik Denizi

(⁴³)وهذا الصحابي هو أبو أيوب الأنصاري، دفن عند أسوار القسطنطينية عام ٤٩ هـ الموافق ٦٦٩م، وبالرغم من ذلك استمرت الجيوش الإسلامية في جهادها لأجل نشر الإسلام في تلك المناطق، ولم تيأس تلك الجيوش من توالي المحاولات على فتح القسطنطينية، حتى فتحت بأمر الله.

(⁴⁴)ارنست كونل: ترجمة أحمد موسى، الفن الإسلامي من العصر الأموي إلى العصر العثماني، مؤسسة وكالة الصحافة العربية، يناير ٢٠٢٠م، ص ٢٣٢

(⁴⁵)اوقطاي اصلان ابا: ترجمة أحمد مُحَمَّد عيسى، فنون الترك وعماثرهم، استانبول، ١٩٨٧م، ص ٢١٥-٢٢٣

(⁴⁶)كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس- منير البعلبكي، ط ٥، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٨م، ص ٤٣٢-٤٣٣-٤٣٤

(⁴⁷)Halil Inalcık: Fatih Sultan Mehmet ve Dönemi, Türkiye Diyanet Vakfı yayınları, 1B, İstanbul, 2019, s106

(⁴⁸)Feridun Emecen: Ayasofya Bizans'tan Günümüze, Timaş yayıları, 2016, s99

(⁴⁹)مُحَمَّد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، سلسلة دراسات عثمانية (١)، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ١٨٨

(⁵⁰)دائرة المعارف الإسلامية، النسخة العربية، المجلد الثاني، دار الشعب، ص ٢٥٠

(⁵¹) Hüseyin Yılmaz: (a,g,e), s94

(⁵²)وكلتاها في الفناء على الجانب الجنوبي

- كارل بروكلمان: مرجع سابق، ص ٤٣٣

(⁵³) Hüseyin Yılmaz: (a,g,e), s96

(^{٥٤}) دائرة المعارف الإسلامية، النسخة العربية، المجلد الثاني، دار الشعب، ص ٢٦٠

(⁵⁵) Hüseyin Yılmaz: (a,g,e), s97

(^{٥٦}) دائرة المعارف الإسلامية، النسخة العربية، المجلد الثاني، دار الشعب، ص ٢٤٠

(^{٥٧}) أحمد بن رسته هو عالم مستكشف وجغرافي فارسي من أصفهان، عاش في القرن العاشر، كتب موسوعة فلكية جغرافية تحت عنوان (الأعلاق النفيسة) تضمنت وصفًا دقيقًا لأصفهان ومكة والمدن الأخرى، إضافة إلى معلومات مهمة عن شعوب وممالك حول العالم الإسلامي وأوروبا وروسيا الشمالية.

-Ali Mashhadi Rafi: Persian Chronicles Of Hagia Sophia, Oriental Company, 2023, p55

-الكتاب عبارة عن تحقيق أكاديمي للفرسية المترجمة من نص "Patria of Constantinople"

(^{٥٨})-هارون بن يحيى كان أسيرًا عربيًا مسلمًا أسر في معركة بحرية من قبل الروم في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، ونقل إلى استانبول، وهناك قضى وقتًا طويلاً في الأسر، مما جعله شاهدًا مباشرًا على الحياة داخل المدينة، بما في ذلك كنيسة آياصوفيا.

-Hüseyin Yılmaz: (a,g,e), s100

(^{٥٩}) قيل إن آصف بن برخيا هو وزير وكاتب سيدنا سليمان عليه السلام ، أشار إليه أبرز المفسرين في قصة نقل عرش بلقيس بصيغة قوله تعالى: "الذي عنده علم من الكتاب" الآية الواردة في سورة النمل، وهو من علماء بني اسرائيل.

-ابن كثير: تفسير ابن كثير، تفسير ابن كثير لسورة النمل، دار طيبة، ط ٢، ١٤٢٠ هـ، الآية (٢٧-٤٠)، ص ٣٨٠-

٣٨٥

(^{٦٠}) دائرة المعارف الإسلامية، النسخة العربية، المجلد الثاني، دار الشعب، ص ٢٤٥

(⁶¹)Ismail Kandemir: Ulu Mâbed Ayasofya, Istanbul, Cadde Kültür Kitabevi, 2004, s76

(⁶²)Hüseyin Yılmaz: (a,g,e), s80

(^{٦٣})اوقطاي اصلان ابا: مرجع سابق، ص ١٠٥

(^{٦٤})بعد صدور حكم المحكمة وقع الرئيس رجب طيب اردوغان في يوم ١٠ يوليو ٢٠٢٠ م مرسومًا رئاسيًا نشر في الجريدة الرسمية للجمهورية التركية (Official Gazette)، هذا المرسوم نقل إدارة الموقع إلى رئاسة الشؤون الدينية (Diyanet)، واعلن فتحه للصلاة مجددًا بحسب المادة ٣٥ من القانون رقم ٦٣٣.

(⁶⁵)The Guardian (2025 مايو)

(⁶⁶)Ap News (2025 ابريل-مايو)

(^{٦٧})مقال بعنوان

"Protecting Wold Heritage Paths for UNESCO Recourse and the Cause of the Hagia Sophia"

من جريدة "Michigan Journal Of International Law"

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية:

- ١- ابن كثير: تفسير ابن كثير، تفسير ابن كثير لسورة النمل، دار طيبة، ط ٢، ١٤٢٠هـ.
- ٢- اسمت غنيم: الحملة الصليبية الرابعة ومسؤولية انحرافها ضد القسطنطينية، دار المعارف، ١٩٨٢م.
- ٣- زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨١م.
- ٤- سيد رضوان علي: السلطان محمد الفاتح، الطبعة ١، ١٩٨٢م.
- ٥- محمد بن أبي السرور البكري الصديقي: المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
- ٦- محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، سلسلة دراسات عثمانية (١)، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، القاهرة، ١٩٩٤م.

ثانياً: المصادر والمراجع المترجمة إلى العربية:

- ١- ارنست كونل: ترجمة أحمد موسى، الفن الإسلامي من العصر الأموي إلى العصر العثماني، مؤسسة وكالة الصحافة العربية، يناير ٢٠٢٠م.
- ٢- اوقطاي اصلان ابا: ترجمة أحمد محمد عيسى، فنون الترك وعمائرهم، استانبول، ١٩٨٧م.
- ٣- فرانك تشينغ: تاريخ العمارة، مترجم من قبل مركز التعريب والبرجمة ببيروت، نيو جرسى، ٢٠١٤م.
- ٤- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس - منير البعلبكي، ط ٥، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٨م.
- ٥- نورمان: الإمبراطورية البيزنطية تاريخها وحضارتها وعلاقتها بالإسلام، تعريب حسين مؤنس محمود يوسف زايد، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٠م.

٦- ول وابريل ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة مُحمَّد بدران، المجلد الرابع، الجزء الأول، ١٩٧٥م.

ثالثاً: المصادر والمراجع التركية:

- 1- Ahmet Turan Köksal: Selçuklu- osmanlı Sentezini Aşmak, Istanbul, 2016.
- 2- Beynun Akyavaş: Istanbul, Tercüme eserleri Dizisi.
- 3- Feridun Emecen, Ayasofya: Bizans'tan Günümüze, Timaş yayıları, 2016.
- 4- Halil Inalcık: Fatih Sultan Mehmet ve Dönemi, Türkiye Diyanet Vakfı yayınları, 1B, Istanbul, 2019.
- 5- Hüseyin yılmaz: Ayasofya, B.2, Timaş Yayınları, Istanbul 1991.
- 6- Ismail Kandemir: Ulu Mâbed Ayasofya, B.2, Istanbul, Cadde Kültür Kitabevi, 2004.
- 7- Károly Kós: Istanbul (şehir Tarihi ve mimarisi) çeviren: Naciye Güngörmüş, Ankara:1995.
- 8- Rudlof Numann: Eski Anadolu Mimarlığı, Türk Tarih Kurumu Yayları, Istanbul. 2019.
- 9- Yılmaz Öztuna: Osmanlı Devleti Tarihi, cilt1, Istanbul, 1986.

رابعاً: المصادر والمراجع الأجنبية الأخرى

- 1- Ali Mashhadi Rafi: Persian Chronicles Of Hagia Sophia, Oriental Company, 2023.
- 2- Judith Herrin: Byzantium, The Suprising Life of a Medieval Empire, Princeton University Press, America, 2008.
- 3- Peter A. Clayton: The Seven Wonders Of the Ancient World, 1988.
- 4- Pietre Gyllius: The Amtiquities Of Constantinople, translate by John Ball, London.
- 5- Treadgold Warren: Ahistory of the Byzantine state and society, Stanford university Press,1997.

خامساً: الدوريات والموسوعات والمعاجم العربية

١- دونالد م. نيكول: معجم التراجم البيزنطية، ترجمة حسن حبشي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٢- الموسوعة العربية الميسرة، الطبعة الثانية. دار الشعب، ١٩٧٢م.

٣- حسن الباشا، موسوعة العمارة والفنون الإسلامية، الجزء الثاني، أوراق شرقية، بيروت، ١٩٩٩م.

٤- دائرة المعارف الإسلامية: النسخة العربية: المجلد الثاني، الشعب.

٥- محمود السيد الدغيم، جريدة الحياة، العدد ١٦٢٥٦-أكتوبر-٢٠٠٧م.

٦- وليم لانجر، موسوعة لاروس، الدولة البيزنطية، للبارز العريني، الجزء الثاني.

سادساً: الدوريات والموسوعات والمعاجم التركية

1- Ayşegül Acar, Türkiye Turizm Ansiklopedisi- “Sultanahmet Meydanı”. 2019.

2- TDV İslam ansiklopedisi, Türkiye diyanet vakfı: cilt 4.

الدوريات والموسوعات والمعاجم الأجنبية الأخرى

1- Ap News (ابريل-مايو 2025)

2- Michigan Journal Of International Law.

3- The Guardian (مايو 2025).

4- The Oxford Dictionary of Christian Art and Architecture. Linda Murray, Peter Murray.